

منهج النقد التاريخي عند ابن عزم

نموذج من نقد توراة اليهود

الدكتور

حامد طاهر

الأستاذ المساعد بقسم

الدعوة والثقافة الإسلامية

في أوروبا ، أدرك العلماء بأن التقدم لا يتم إلا بالعلم ، وأن العلم لا يتطور إلا بالمنهج . . . لذلك فقد اهتموا كثيراً بالحديث النظري عن قواعد المناهج ، وخصائصها ، وإمكانياتها . . . أما علماء المسلمين فقد انصبّت جهودهم على التطبيقات العملية للمناهج التي استلهموها من القرآن الكريم ، والتي تطورت مع تطور العلوم المنبثقة عنه . . . ومن ثم ، فإن « استخلاص عناصر المنهج » من كتاباتهم يعدّ - في رأينا - خطوة أساسية نحو التصور الصحيح لها . . .

ومنهج النقد التاريخي عند ابن عزم الأندلسي من أبرز الأمثلة على ذلك . فهو موجود لديه بمعظم عناصره الحديثة ، ولكنه محتبيء خلف التطبيق الذي قام به لبيان الزيف في نسخة التوراة التي كانت بأيدي اليهود على عصره . . .

والهدف الأساسي من هذا البحث هو الكشف عن عناصر ذلك المنهج . . .

تمهيد :

يعتبر ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) واحداً من أعلام الحضارة الإسلامية بوجه عام ، ومن أبرز علماء الأندلس على نحو خاص . وقد تجلّت في شخصيته تلك الظاهرة الموسوعية التي كانت سمة واضحة لدى معظم علماء المسلمين . فقد كتب في الفقه ، وأصول الفقه ، والأنساب ، والتاريخ ، والمنطق ، ومقارنة الأديان ، كما كتب في الأخلاق ، وترك كتاباً متميزاً في الأدب العربي هو « طوق الحمامة ، في الألفة والألاف » . ومع تمكنه العلمي الواضح ، كان ابن حزم شاعراً وأديباً ، على درجة عالية من الحسّ المرهف ، والبيان القادر على التأثير . وما هو جدير بالملاحظة أنه لم يمرّ على واحد من المجالات السابقة مروراً عابراً ، بل إنه تعمّقه ، وبدا كما لو كان متخصصاً فيه وحده .

يضاف إلى ذلك ، أن ابن حزم قضى جزءاً من حياته في الاشتغال بالسياسة وأمور الحكم . فقد عُيّن وزيراً أكثر من مرة ، لكن ظروف الأندلس على عصره كانت مضطربة (انحلال الخلافة الأموية وبداية عصر ملوك الطوائف) وهذا ما جعله يهجر السياسة تماماً ، ويتفرغ للبحث العلمي ، والتأليف الغزير : روى ابنه أبو رافع أن مصنّفات والده بلغت الأربعمائة ، وأن عدد أوراقها بلغ ثمانية ألف ورقة^(١) .

لم تصلنا حتى الآن كل مؤلفات ابن حزم ، شأنه في ذلك شأن معظم علماء المسلمين الذين تميزوا بغزارة الإنتاج . لكن ما وصلنا ، وتم بالفعل طبعه أو تحقيقه يكفي إلى حد كبير في تأكيد مكانة ابن حزم العلمية ، واستخلاص أصول مذهبه وقواعد منهجه .
يمثل إنتاج ابن حزم عالماً يكاد يكون مستقلاً بنفسه . وهذا يعني أنه على الرغم من تعدد مجالاته وتنوعها إلى حد كبير ، فإن له - ككل - حدوده المتميزة . والذي يعيش طويلاً مع هذا

(١) الصلة لابن بشكوال . رقم ٨٨٨ ، ورقم ٩٤٤ .

الإنتاج يكاد يصبح صديقا لابن حزم ، والسبب في ذلك أنه لا يخفى شخصيته الإنسانية عن القارئ . فكثيرا ما نجده يظهر بين السطور ليتحدث عن بعض مؤلفاته السابقة ، أو الموضوعات التي ينوي الكتابة عنها فيما بعد . وأحيانا ما يتحدث عن مناظرة أجراها مع عالم آخر أو حادثة شخصية وقعت له ، وهي ذات ارتباط بالموضوع الذي يتناوله . وأخيرا فإن ابن حزم لا يتردد عن استخدام أقسى الألفاظ في الهجوم على خصومه ، دون أن يخلو ذلك بالطبع من تهكم وسخرية ، يطبعان أسلوبه بطابع خاص . وهكذا يتحول القارئ الدؤوب لابن حزم إلى جليس يصغى إليه ، ويتفاعل معه .

وقد بدأت الدراسات المتعمقة عن ابن حزم منذ بداية القرن العشرين أو قبل ذلك بقليل . وقد كان المستشرقون أسبق من المسلمين في هذا المجال . وأهم ثلاث دراسات أوروبية تمت حول ابن حزم دراسة جولد تسيهر بالألمانية سنة ١٨٨٤^(٢) ، ودراسة آسين بلاثيوس بالأسبانية سنة ١٩٢٩^(٣) ، ودراسة روجر أرنالديز بالفرنسية سنة ١٩٥٦^(٤) ، وهي كلها لم تترجم حتى الآن إلى اللغة العربية .

أما في العالم العربي فحسبنا أن نشير - من بين الدراسات العديدة التي دارت حول ابن حزم - إلى دراسة فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ، وهي بعنوان « ابن حزم : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » ١٩٥٤^(٥) ، وهو يركز فيها على جانبه الفقهي والأصولي بالاعتماد على كتابيه الكبيرين : المحلّي . والإحكام في أصول الأحكام . أما الدراسة الأخرى فهي لذكريا ابراهيم ، بعنوان « ابن حزم الأندلسي ، المفكر الظاهري الموسوعي » ١٩٦٦^(٦) . وتتميز هذه الدراسة - بالرغم من طابعها العام - بتناول معظم الجوانب العلمية في شخصية ابن حزم .

وفي كل الدراسات التي تمت حول ابن حزم ، استوقفت الباحثين ظاهرة وجود منهج محدد

Die Zähriten, Leipzig, 1884. (٢)

Aben hazam de Cordoba y su Historia Crítica de las ideas religiosas, Madrid, 1927-1929. (٣)

Grammaire et Théologie chez Ibn Hazm de Cordoue, Paris, 1956. (٤)

(٥) نشرته دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٤ .

(٦) الكتاب رقم ٥٩ من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٦ .

لديه ، وإصراره المستمر على تطبيق هذا المنهج في كل المجالات التي تعرّض لها بالبحث . وهذا المنهج واضح تماماً في الفقه ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام ، والتاريخ ، والجدل ، ومقارنة الأديان ، وحتى في اللغة والأدب .

ولا ينبغي أن يعتبر « المنهج » أمراً ثانوياً في مجال البحث العلمي . فإن وضوحه - فضلاً عن وجوده - في ذهن الباحث هو الذي يضيف على إنتاجه التماسك والتطور اللازمين لتقدم عمله ، ويجعل منه لبنة حقيقية تضاف إلى صرح العلم ، بدلاً من أن تكون عالة عليه ، وما أشبه ذلك بقطع الحجارة والأخشاب والرمل والحصى الملقاة على الأرض ، ثم بها كلها وقد انتظمتها خطة هندسية « منهج » فتجمعها جمعاً مترابطاً ، لكي ينهض منها بيت ينتقع به الناس .

ونحن نرى أن ابن حزم لديه المنهج ، وهذا هو السبب في أنه أضاف إلى حركة العلوم الإسلامية شيئاً جديداً . تماماً كما كان لدى الشافعي منهج ، ولدى الغزالي منهج ، ولدى ابن تيمية منهج ، ولدى ابن خلدون منهج ..

المنهج لدى المسلمين :

كل ما في الإسلام يبدأ من القرآن الكريم . ومن المقرر أن هذا الكتاب الخالد قد زوّد المسلمين بمنهج للمعرفة يعتمد أساساً على مشاهدة الحس ، وبداهة العقل ، ويتميز بالبساطة والوضوح ، ويتجه إلى منفعة الإنسان في دينه ودنياه .

تلك هي خطوط المنهج القرآني بصفة عامة . أما تفصيلاته فإنها تتنوع بتنوع المجالات التي يتعرض لها الإنسان :

- ففي مجال الأمور الغيبية ، التي تتجاوز نطاق العقل البشري (بحكم طبيعتها من ناحية ، وقدرته من ناحية أخرى) هناك منهج الاتباع .. ولا ينبغي أن يتصور أحد أن الاتباع في أمور الغيب لا يستند إلى أساس عقلي . فإن الاتباع لا يتم إلا بعد أن يثبت الإنسان من صدق الرسول الذي يقود خطاه في ذلك الميدان الشاسع .. تماماً كما نلقى بأيدينا إلى « دليل » موثوق به في صحراء أو غابة .. فنحن نتقدم فيها على حذر ، ولكننا واثقون تماماً من أن قائدنا فيها خبير بدروها ومسالكها ، ولذلك فإننا مطمئنون إلى اجتيازها من خلفه .

- وفي مجال العقيدة يوجد منهج الاستقراء الحسيّ (القائم على الملاحظة والمواجهة المباشرة مع الظواهر) والاستدلال العقلي القادر على اقناع الكافة .. لإثبات وجود الله ،

ووحدايته .. وكذلك اثبات البعث ، والشور ، والثواب والعقاب ..

- وفي مجال التشريع ، هناك منهج الاستنباط القائم على استخراج الأحكام الفرعية لكل ما يتعرض له الإنسان في حياته اليومية من أصول الشريعة الأساسية ..

- وفي مجال المعاملات ، هناك منهج الإثبات والإشهاد ، وتسجيل العقود عن طريق الكتابة ..

- وفي مجال الأخبار المنقولة ، هناك منهج الثبوت والتحري والتمحيص والبحث عن حال الناقلين للأخبار^(٧).

وهكذا تتنوع المناهج القرآنية بتنوع المجالات ، ومن الثابت تاريخياً أن المسلمين الأوائل قد استوعبوا جيداً هذه المناهج ، وقاموا بتطبيقها على نحو يدعو للإعجاب في مختلف المجالات .

ويكفي أن نشير هنا إلى منهجهم في توثيق النص القرآني على عهد أبي بكر الصديق ، والجهد العلمي الصادق الذي قام به زيد بن ثابت وأصحابه ، الذين كُلفوا بجمع صحائف القرآن الكريم عقب وفاة الرسول (ص) مباشرة .

ثم ذلك الجهد الآخر ، الذي قاموا به على عهد عثمان بن عفان في تدوين المصحف الشريف .

وما تم بعد هذا وذاك من وضع « علم القراءات القرآنية » بغرض الحفاظ على سلامة الأداء القرآني الصحيح ، لكي يستمر اتصال نطقه بنطق الرسول (ص) ، وصحابه الكرام .

لم تكن عملية توثيق النص القرآني عشوائية لدى المسلمين ، وإنما كانت - بالمقياس العلمي الحديث - بحثاً علمياً متكاملأ ، استخدم القائمون عليه - وهم فريق - منهجاً علمياً أصيلاً ، حدّد لهم القرآن مبادئه الرئيسية ، وبين لهم الرسول (ص) أهم معالمه . فلم

(٧) انظر بصفة خاصة مقدمة الإمام مسلم لكتابه « الصحيح » حيث يؤكد دلالة السنة على « نفي رواية المنكر من الأخبار كنهودلالة القرآن على نفي خبر الواحد » ٩/١ نشر محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء الكتب العربية ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م .

يكونوا يقبلون نصبا بدون شهود ، ولا شهوداً بدون أن تتوافر فيهم العدالة والأمانة والثقة . . وكان بحثاً جماعياً ، قام عليه عدد من علماء الصحابة ، وكانت تتم خطواته دون سرية ، وأمام الجميع . . لهذا فقد أنجز بكفاءة ، وحظيت نتيجته - حتى يومنا هذا - بالقبول .

أما البحث العلمي الكبير الثاني لدى المسلمين ، فقد كان هو جمع السنة النبوية وتوثيقها ، ولا شك في أنهم قد أفادوا كثيراً من منهج العملية الأولى . وهذا واضح في أعمال الإمام البخاري ، والإمام مسلم ، والإمام ابن حنبل ، وغيرهم . . ومن المعروف أن مناهج علماء السنة وجامعي الصحاح هي التي أثمرت « علم مصطلح الحديث » وهو ذلك العلم الإسلامي الخالص الذي يُعتبر - بالمقياس الحديث أيضاً - وثيقة أساسية هامة في مناهج البحث التاريخي وتوثيق النصوص ، ليس في العالم الإسلامي فقط ، وإنما على مستوى العالم كله .

وبالإضافة إلى ما سبق ، قام فقهاء المسلمين - في مجال الأحكام الشرعية والمعاملات - بوضع عدد من المذاهب ، التي تميز كل منها بمنهج محدد : فالمذهب المالكي يعتمد اعتماداً كبيراً على الآثار الروية ، في حين ينتزع المذهب الحنفي إلى استخدام القياس العقلي . . ثم يأتي المذهب الشافعي ليحاول إحداث التوازن بينها في مذهب متميز ، وأخيراً يعود المذهب الحنبلي في صورة أكثر حسماً إلى الآثار الروية من جديد . . وإلى جانب هذه المذاهب الأربعة الشهيرة ، ظهرت مذاهب أخرى ، حسبنا أن نذكر منها : المذهب الظاهري الذي يقتصر في منهجه على ظاهر النصوص رافضاً بشدة الاعتماد على القياس ، وليس من المستبعد أن يكون تطرفه في هذا الاتجاه رد فعل للمذهب الباطني الذي يقوم أساساً على منهج التأويل ، وهو الذي يرى أن لكل نص ديني ظاهراً وباطناً . . وأن المعنى الباطن إنما هو المقصود الأساسي من الشريعة .

وقد أدى التأمل العميق في مناهج المذاهب الفقهية المختلفة والمقارنة بينها إلى نشأة علم إسلامي أصيل ، هو « علم أصول الفقه » الذي يُعتبر بمثابة منهج البحث العام في الشريعة . فهو العلم الذي يهتم بالأصول العامة التي تستمد منها الأحكام الفرعية ، وبيان الطرق التي تؤدي إلى ذلك ، مع تزويد الباحث بمجموعة من القواعد التي تسهل عمله ، وتحفظه - في نفس الوقت - من الوقوع في الخطأ .

ثم نتيجة لحركة الترجمة الواسعة التي تمت في العصر العباسي الأول تعرف المسلمون على منطق أرسطو ، وهو منهج البحث لدى الإغريق ، وضعه أرسطو ليكون معياراً للعلوم ، وقد

أعجب به المسلمون كثيرا ، باعتباره « العلم الذي تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ في التفكير » ، وأسرعوا باستخدامه في مجالات كثيرة ، مثل علم الكلام ، والنحو ، والبلاغة ، الخ . . . ولكن بعض المسلمين تنبهوا لعيوبه فهاجموه ، وبيّنوا - قبل عصر النهضة الأوروبية - أنه لا ينفع الذكي ولا ينتفع به البليد^(٨) . . . وهذا معناه ببساطه : أنه لا يساعد على تقدم المعرفة الإنسانية ، بل على العكس يعمل على تجميدها .

لكن تأثير منطق أرسطو - على الرغم من بعض التحذيرات - كان بالغاً في العالم الإسلامي ، وخاصة ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ولا شك في أنه أفاد كثيراً في دفع عمليات التصنيف ، والتقسيم ، والتفريع ، والتعريف التي نجدها واضحة في مختلف العلوم الإسلامية ، لكن عيوبه تمثلت في إغلاق منافذ التفكير الإبداعي المستمر في تلك العلوم . فبسبب منطق أرسطو ، وقفت البلاغة العربية (وهي المقياس الحساس للأدب) هيكلًا عظيمًا بدون روح ، واكتفى الدارسون فيها بشبكة هائلة من التعريفات والتقسيمات (التي استخدمت أحياناً أمثلة مصنوعة) لكي تستجيب تماماً للمنهج الأرسطي ، الذي يهيم « شكل » القاعدة أكثر من اهتمامه بالأمثلة الواقعية لها .

ومن المعروف أن تأثير منطق أرسطو الواضح في « علم الكلام » هو الذي أبعد هذا العلم عن هدفه الحقيقي ، وجره إلى مناقشات جدلية طويلة حول أمور تجريدية بحثة^(٩) . بل إن علماء آخر مثل « أصول الفقه » لم ينج أيضا من هذا التأثير ، وخاصة في المؤلفات المتأخرة منه ، حيث وجد أصحابها من المفيد أن يضعوا في مقدمتها جزءاً من منطق أرسطو^(١٠) .

ومع ذلك فإن المسلمين في مجال العلوم التجريبية ، كالفلك والطب والكيمياء ، لم يخضعوا دائماً لمنطق أرسطو ، فقد ثبت أنهم استخدموا منهج الملاحظة والتجربة ، وهو المنهج

(٨) هذه العبارة مقتبسة من مقدمة كتاب « الرد على المنطقيين » لابن تيمية . ط . دار المعرفة ، بيروت . بدون تاريخ .

(٩) انظر كتابنا « مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية » - الفصل الرابع بعنوان « المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة في الفلسفة الإسلامية » ص ٩٦ - ١٠٠ - ط القاهرة ١٩٨٥ .

(١٠) « المنهج الأرسطي والعلوم الكلامية والفقهية في الإسلام ، للأستاذ الدكتور ابراهيم مذكور - وهو مقال قمنا بترجمته من كتابه بالفرنسية عن منطق أرسطو في العالم العربي ، مجلة الثقافة ١٩٧٩ .

الذي أدى فيما بعد إلى الانقلاب الحاسم في تاريخ أوروبا الحديث^(١١) ، ويكفي أن نقرأ مقدمة كتاب « المناظر » لابن الهيثم لنقف على وصفٍ ، دقيق للغاية ، للمنهج التجريبي لدى المسلمين وأهم خطواته .

لكن سائلاً قد يعترض : ولماذا لم يتقدم المسلمون ، ماداموا قد توصلوا إلى المنهج التجريبي بأنفسهم ، كما تقدمت أوروبا ، عندما توصلت إلى هذا المنهج فيما بعد ؟

ونجيب بأن هناك عوامل كثيرة هي التي عاقت هذا التقدم ، بعضها سياسي ، وبعضها اقتصادي ، وبعضها اجتماعي . . وكذلك فإن بعضها داخلي وبعضها خارجي . . ومجموع هذه العوامل هو الذي أدى إلى ضمور الحضارة الإسلامية . . ولا شك في أن تحليل هذه العوامل - بصورة موضوعية خالصة - ينتظر عملاً كبيراً من الباحثين المسلمين في العصر الحديث ، لأن تقدم أمتهم في الحاضر والمستقبل لن يتم بدون تحديد أسباب التدهور السابقة .

منهج ابن حزم في نقد التوراة :

ويعتبر هذا المنهج نموذجاً واضحاً على تقدم المسلمين في مجال نقد النصوص القديمة ، ومحاولة التثبت منها عن طريق استخدام مجموعة من الخطوات العلمية المنظمة ، التي تتعاون كلها من أجل الوصول في النهاية إلى نتيجة محددة .

ومن المعروف في مناهج البحث الحديثة أن نقد النصوص القديمة أو الوثائق يدخل في إطار المنهج التاريخي ، الذي يقوم على دعامين رئيسيتين :

أ - النقد الخارجي للوثائق .

ب - النقد الداخلي للوثائق .

والنقد الخارجي للوثائق يتضمن نقد مصدر الوثيقة ، وتاريخ انتقالها عبر العصور ، وطريقة وصولها إلينا ، وحالتها التي وصلت بها . . الخ ، أما النقد الداخلي فهو الذي يتجه أساساً إلى تحليل مضمون الوثيقة تحليلاً يبدأ من الخطوط واللغة ، وينتهي بقياس ما تحتوي عليه الوثيقة من معلومات تبعاً لعدة مقاييس ، بعضها تاريخي ، وبعضها عقلي ، وبعضها

(١١) نحيل هنا على كتاب د . النشار : مناهج البحث لدى مفكري الإسلام . ط ثانية - الاسكندرية

وقبل أن نتبع خطوات هذا المنهج عند ابن حزم ، لابد أن نشير إلى أنه قد أعد نفسه جيداً لتطبيقه على نص التوراة الموجودة في أيدي يهود الأندلس على عصره ، وهو يطلق عليها « الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة » (١٣) . ويمكن التعرف على ذلك فيما يلي :

١ - جمع ما أمكن من نسخ التوراة التي كانت مترجمة إلى العربية على عهده (١٤) ، وكذلك كتب الأنبياء الأخرى ، والشروح ، والتعليقات عليها (١٥) .

٢ - الاطلاع الواسع والمتعمق في تاريخ اليهود السياسي والديني (١٦) ، مع الإلمام الكافي بجغرافية بلادهم (١٧) .

٣ - السعي إلى كثير من علماء اليهود للاستفسار عن معنى غامض ، أو موهوم (١٨) ، والدخول مع بعضهم أحياناً في مناقشات شفهية (١٩) .

وقد حدد منذ البداية غرضاً ذا شقين ، يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً وثيقاً :

الأول : بيان تحريف التوراة التي بأيدي اليهود ، وإظهار ما فيها من كذب وتناقض (٢٠) .

الثاني : إثبات أن الإسلام هو الدين الحقيقي الذي ينبغي التمسك به (٢١) .

أما المنهج الذي اتبعه ابن حزم فقد لا يجد الباحث اختلافاً كبيراً بينه وبين منهج النقد

(١٢) انظر : د . محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، د . عبد الرحمن بدوي : مناهج

البحث العلمي - وفي كل منها فصل مخصص لمنهج البحث في التاريخ .

(١٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/١١٦ - والطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث مصورة في

بيروت - مكتبة خياط - عن نسخة القاهرة ، في خمسة مجلدات وهامشها كتاب الملل والنحل

للمهرستاني - وسنقتصر في الإشارة إليها بـ (الفصل) اختصاراً .

(١٤) الفصل ١/١٢١ .

(١٥) السابق ١/٢٠٤ وكذلك ٢٠٧ .

(١٦) السابق ١/١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ .

(١٧) السابق ١/١٠٣ ، ١٠٤ . (١٨) السابق ١/١٤١ ، ١٤٢ .

(١٩) السابق ١/١٥٢ (٢٠) السابق ١/١١٦

(٢١) السابق ١/٢٢٤

التاريخي الحديث . ولا يعني هذا أن ابن حزم كان عليه أن يستخدم نفس المصطلحات الحديثة ، ولكنه في الواقع كان على وعي كامل بخطوات المنهج ، وطريقة تطبيقها على المادة التي كانت بين يديه .

ويلاحظ أن المحاولة التي نقوم بها هنا ليست إلا استخلاصاً لخطوات هذا المنهج من خلال تطبيقاتها عند ابن حزم ، ولذلك فإننا لن نورد من نصوصه إلا ما يتعلق مباشرة بإحدى قواعد منهجه في النقد التاريخي . وسنقسم خطوات هذا المنهج إلى قسمين رئيسيين أحدهما : للنقد الخارجي ، والثاني : للنقد الداخلي .

أولاً : النقد الخارجي لنص التوراة :

● اطلع ابن حزم باعترافه على نسختين مختلفتين للتوراة^(٢٢) ، وقد سجل لنا في هذا الصدد وصفاً تفصيلياً لإحدى هاتين النسختين ، قلما نعثر عليه في كتابات أحد من مفكري الإسلام . يقول :

« وإنما هي (التوراة) مقدار مائة ورقة وعشرة أوراق في كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطرًا إلى نحو ذلك بخط هو إلى الانفساح أقرب ، يكون في السطر بضع عشرة كلمة »^(٢٣) .

● لكن ماذا كانت حال التوراة قبل أن تدون ؟ وهنا كان على ابن حزم لكي يجب على هذا السؤال ، أن يتتبع التاريخ السياسي والديني لليهود ، حتى يبرز الأدوار المختلفة التي مرت بها التوراة ، وإلى أي مدى انعكست حياة اليهود عليها في حالتها إيمانهم وارتدادهم عن الإيمان ؟ ولدى من كان يُحفظ بها ؟ وأحوال الحفظ ؟ والمكان الذي كانت تُحفظ فيه ؟ إلى آخر تلك

(٢٢) السابق ١/ ١٢١ ، ومن المعروف أن توراة اليهود قد ترجمت بصورة كاملة مرتين قبل عصر ابن حزم : الأولى على يد سعديا الفيومي (ت ٣٣١ هـ) والثانية على يد اسحاق فالسكيز عام ٣٣٥ هـ في قرطبة بالأندلس ، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الترجمة الأخيرة هي التي اطلع عليها ابن حزم .
انظر آخر بحث بالعربية ظهر عن « الكتاب المقدس وأسفاره » للأستاذ بسام الجابي - مجلة البصائر - العدد ١١ - باريس ١٩٨٧ م .

(٢٣) الفصل ١/ ١٨٧

الأسئلة الهامة في مجال التحليل الخارجي للوثائق^(٢٤) .

● يقول ابن حزم : « ونحن نصف - إن شاء الله تعالى - حال كَوْن التوراة عند بني اسرائيل من أول دولتهم ، إثر موت موسى ، إلى انقراض دولتهم ، إلى رجوعهم إلى بيت المقدس ، إلى أن كتبها لهم عزرا الوراق ، بإجماع من كتبهم ، واتفق من علمائهم ، دون خلاف يوجد من أحد منهم في ذلك . وما اختلفوا فيه من ذلك نبهنا عليه »^(٢٥) .

● ومنذ وفاة موسى ، عليه السلام ، إلى ولاية أول ملك لهم ، وقع لبني اسرائيل سبع رِدَات ، فارقوا فيها الإيمان ، وأعلنوا عبادة الأصنام ، والجدول التالي يبين عدد سنوات تلك الرِدَات :

٨ سنوات	الرِدَّة الأولى
١٨ سنة	الرِدَّة الثانية
٢٠ سنة	الرِدَّة الثالثة
٧ سنوات	الرِدَّة الرابعة
٣ سنوات	الرِدَّة الخامسة
١٨ سنة	الرِدَّة السادسة
٤٠ سنة	الرِدَّة السابعة

ثم في أثناء فترة الأسباط العشرة من بني اسرائيل ، تراوح أمرهم بين الإيمان والكفر ، وإن كان قد جرى معظم ملوكهم العشرين على اعلان الكفر^(٢٦) ، إلى أن أسر سليمان الأعسر ، ملك الموصل ، آخر ملوكهم ، وسبى بني اسرائيل ، وحملهم إلى بلاده ، وأسكن في موضعهم قوماً من أهله . وهؤلاء هم أسلاف السامرية الذين اختصوا أنفسهم بتوراة مستقلة^(٢٧) ، وصاروا لا يعترفون بالتوراة التي في أيدي باقي اليهود .

(٢٤) انظر كلام من د . قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ، د . بدوي : مناهج البحث العلمي .

(٢٥) الفصل ١/١٨٧

(٢٦) السابق ١/١٩٣ - ١٩٥ .

(٢٧) السابق ١/١١٧

والواقع ان ابن حزم هنا يقدم مزيداً من التفصيلات الدقيقة بغية الوصول إلى أن التوراة ، وقد مضى عليها كل هذا التاريخ المضطرب ، المليء بسنوات الكفر والاضطهاد الديني للأنبياء ، قد تعرضت « للتبديل ، والتحريف ، والتغيير ، والزيادة ، والنقصان »^(٢٨) ، بل إنه يذكر أن اليهود « مقرّون بأن يهوا حاز بن يوشيا ، الملك الداودي ، المالك لجميع بني اسرائيل بعد انقطاع ملوك سائر الأسباط : بشر (أى كَشَطَ) من التوراة أسماء الله تعالى ، وألحق فيها أسماء الأوثان ! وهم مقرّون أيضاً أن أخاه ، الوالي بعدُ ، وهو الياقيم بن يوشيا أحرق التوراة بالجملة ، وقطع أثرها »^(٢٩) .

وأخيراً ، وقعت غارة بختنصر ، وتمّ خراب بيت المقدس ، وهو المكان الذي كانت تصان فيه التوراة ، « وكانت كتابة عزرا ، الوراق الهاروني ، للتوراة بعد أزيد من سبعين سنة ، من خراب بيت المقدس .. أملاها عليهم من حفظه ، وهم مقرّون أنه وجدها عندهم ، وفيها خلل كثير ، فأصلحه .. ومن ذلك الوقت ، انتشرت التوراة ، ونسخت ، وظهرت ظهوراً ضعيفاً أيضاً ، ولم تزل تتداولها الأيدي مع ذلك .. ثم تولى أمرهم قوم من بني هارون بعد مئتين من السنين .. فحينئذ انتشرت نسخ التوراة التي بأيديهم اليوم »^(٣٠) .

وهكذا ، عن طريق استعراض التاريخ الديني والسياسي لليهود ، يصل ابن حزم إلى أن نصّ التوراة الأصلي ، الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ، قد تعرّض ، من الناحيتين الزمانية والمكانية ، لظروف تجعلنا لا نثق به . وفيما يلي عرض أكثر تحديداً لأهم القواعد التي اعتمد عليها ابن حزم في النقد الخارجي لنص التوراة :

١ - على مدى تاريخ اليهود ، اختلفت عليهم أحداث جسام ، وتولّى أمرهم ملوك بعضهم مؤمن ، وأكثرهم كافر ، أعلن الكفر ، وعبادة الأوثان ، وقتل الأنبياء وفي مثل هذا الجو ، لم يكن يمكن لنبي أن يدعو الناس إلى التمسك بمبادئ التوراة الصحيحة^(٣١) ،

(٢٨) السابق ١ / ١٨٤ .

(٢٩) الرد على ابن النغيلة ص ٧٧ .

(٣٠) الفصل ١ / ١٩٧ .

(٣١) السابق ١ / ١٩٣ .

وحتى هذه التوراة قد تعرضت أحياناً للتحريف المتعمد ، وفي أحيان أخرى لمحاولة اعدام كامل .

٢ - أحيانا كانت فترات الكفر تتصل حتى تبلغ مائة وستين عاما متتالية : « فأى كتاب أو أى دين يبقى مع هذا !؟ » (٣٢)

٣ - بل ما هو أكثر من ذلك : « أى كتاب يبقى مع تمادي الكفر ، ورفض الإيمان هذه المدد الطوال ، في بلد صغير ، مقدار ثلاثة أيام في مثلها ، ليس على دينهم واتباع كتابهم أحد على ظهر الأرض غيرهم » (٣٣) .

٤ - ومن ناحية أخرى ، فإن الكهنة ، حَفَظَ التوراة « قد كان فيهم ما كان في غيرهم من الكفر والفسق وعبادة الأوثان : وَمَنْ هذه صفته فلا يؤمن على تغيير ما ينفرد به » (٣٤) .

٥ - وأخيراً فإن من القواعد الهامة ، التي يسجلها ابن حزم ، أن « كل كتاب وشريعة كانا مقصوريين على رجال من أهلها ، وكانا محظورين على من سواهم ، فالتبديل والتحريف مضمون فيها .. وكذلك التوراة إنما كانت طوال مدة بني اسرائيل عند الكوهن الأكبر الهاروني وحده ! » (٣٥) .

توراة السامرية :

وقبل أن نتقل إلى النقد الداخلي للتوراة عند ابن حزم ، نتوقف قليلاً عند توراة السامرية ، وهى التي ينكرها معظم طوائف اليهود الأخرى ، نظراً لأن معظم النقد الموجه إليها يرجع إلى الناحية الخارجية :

يذكر ابن حزم أن اليهود ينقسمون إلى خمس فرق (٣٦) :

(٣٢) السابق ١ / ١٩٦ .

(٣٣) السابق ١ / ١٩٠ .

(٣٤) السابق ١ / ١٩٩ .

(٣٥) السابق ١ / ١١٣ وكذلك : الرد على ابن النغيلة ص ٧٧ .

(٣٦) الفصل ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

- ١ - السامرية
- ٢ - الصدوقية
- ٣ - العنانية
- ٤ - الربانية
- ٥ - العيسوية

ولما كانت فرقة السامرية تختلف عن الفرق الأربع الأخرى اختلافا كبيرا في معظم الأسس تقريبا ، ومن بينها أنها تنكر التوراة التي تؤمن بها سائر الفرق الأخرى ، وتختص نفسها بتوراة مستقلة فإن هذه الفرق تتخذ منها نفس الموقف : كلها تنكر توراة السامرية ، وتقرر تحريفها وبطلانها^(٣٧) .

وفي البداية ، يجد ابن حزم نفسه أمام تناقض الخصوم فيما بينهم فلا يسعه إلا أن يسرع بانخاذ هذا التناقض دليلاً مبدئياً على فساد توراة السامرية ، وهو دليل من أقوال خصومهم وخصومه في نفس الوقت . ومع ذلك ، فقد حاول أن يحصل على نسخة من توراة السامرية ، لكنه لم يستطع ، وهو يبين السبب في ذلك حين يقول : « ولم يقع لنا توراة السامرية ، لأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً »^(٣٨) . ثم يضيف : « إلا أننا قد أتينا ببرهان ضروري على أن التوراة التي بأيدي السامرية أيضا محرّفة مبدلة »^(٣٩) .

ويستخرج ابن حزم هذا البرهان من التاريخ اليهودي نفسه ، وهو يتمثل في أن السامرية يختلفون ، منذ البدء ، عن باقي اليهود في الجنس والمكان والعقائد : فهم من بقايا نسل أهل الموصل الذين نقلهم الملك سليمان الأعسر بعد سبى بني اسرائيل من بلاد الشام . وقد سكنوا هذه البلاد ، وأصبحوا لا يستحلون لأنفسهم الخروج منها ، ونتج عن هذا وذاك تميّز عقائدهم بطابع لا يتفق وعقائد اليهود جميعاً « فأمرُ توراة أولئك (السامرية) أضعف من توراة هؤلاء (سائر اليهود) ، لأنهم لا يرجعون فيها إلى نبي أصلاً ، ولا كانوا هنالك أيام

(٣٧) السابق ١/١/ ١١٧ .

(٣٨) السابق ، نفس الجزء والصفحة

(٣٩) السابق ، نفس الجزء والصفحة .

دولة بني اسرائيل ، وإنما عملها لهم رؤساؤهم «(٤٠)» .

وهكذا ينتهي ابن حزم بسرعة من توراة السامرية ، ومع ذلك يمكننا أن نتلمس خطوات منهجه هنا فيما يلي :

١ - محاولة الحصول على نسخة من توراة السامرية ، وبيان السبب في عدم التمكن من ذلك (= جمع الوثائق) .

٢ - الاعتماد على تناقض الخصوم فيما بينهم ، وصولاً للمطلوب (دليل جدلي) .

٣ - الرجوع إلى تاريخ اليهود نفسه ، لبيان الصلة المقطوعة بين توراة السامرية وأنبياء بني اسرائيل ، وكذلك غياب السامرية من منطقة الشام في أثناء دولة بني اسرائيل ، بالإضافة إلى أن رؤساءهم هم الذين وضعوها لهم (أحد وجوه النقد الخارجي للوثائق) .

ثانياً : النقد الداخلي لنص التوراة :

قلنا فيما سبق إن ابن حزم قد وصف النسخة التي اعتمد عليها من التوراة وصفاً قلماً نجد له مثيلاً عند أحد من مفكري الإسلام ، ونضيف هنا : أنه تتبّع ، على الترتيب ، فصولها السبعة والخمسين^(٤١) ، كل فصل على حدة ، مبيّناً ما فيه من أدلة تكشف عن فساد نسبهته إلى موسى ، عليه السلام ، وتثبت أنه من وضع مُدلسٍ جاهل^(٤٢) ، أو ملحد متستر باليهودية^(٤٣) .

والحقيقة أنه كان ينقص ابن حزم ، لكي يلحق بالمنهج النقدي الحديث تماماً ، أن يتقدم خطوة أخرى ، فيقوم بتصنيف الأدلة التي توصل إليها ، على أساس موضوعي ، حتى يسلم عمله من بعض التكرار الذي وقع فيه ، نتيجة لغياب هذا التصنيف (مثلا : النصوص التي تدل على تشبيه الله تعالى ، يتكرر ورودها في الجزء الأول من كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، صفحات ١١٧ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥) .

ومع هذا ، فيمكن القول بأن هذا التكرار ربما كان مقصوداً من ابن حزم نفسه ، لكي

(٤١) السابق ١ / ١٨٦ .

(٤٣) السابق ١ / ١٢٨ .

(٤٠) السابق ١ / ١٩٥ .

(٤٢) السابق ١ / ١٥٠ .

يؤكد للقارىء ، على فترات مختلفة ، مدى ما وقع فيه واضعو التوراة المحرّفة من خلط واضطراب ، وعدم إحكام للمهمة التي حاولوا القيام بها .

ومن ناحية أخرى ، فكأنما أراد ابن حزم أن يقول للقارىء : إنني سوف أبدأ من البداية ، وأتدرج مع فصول التوراة على الترتيب الذي جاءت به : حتى لا يفوتني شيء . ولعل ما يؤكد هذا أننا نجدّه يبدأ بالاعتباس من الصفحة الأولى للتوراة^(٤٤) ، وينتهي بالفصل الأخير منها^(٤٥) .

ويلاحظ أن ابن حزم يورد أربعة وخمسين نصاً من فصول التوراة التي ذكر أنها سبعة وخمسين فصلاً . ولا يعنى هذا أنه قد تجاوز ثلاثة فصول ، لكنه في الواقع كان يستخرج أحياناً من النص الواحد ثلاثة أخطاء^(٤٦) ، وفي أحيان أخرى سبع كذبات^(٤٧) .

لقد حرص ابن حزم على أن يكون منصفاً في نقده للتوراة ، ولذلك استبعد من نصوصها ما كان محتماً أو غامضاً ، حتى لا يدع مجالاً لمعتراض . وقد اقتصر في جمع مادته على النصوص الصريحة في الدلالة المباشرة على ما يريد . يقول :

« وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا (الفصل) أننا لم نخرج من الكتب المذكورة (يقصد كتب اليهود) شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما ، وإن دقّ وبعد . فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له ، وكذلك أيضاً لم نخرج منه كلاماً لا يفهم معناه ، وإن كان ذلك موجوداً فيها ، لأن للمقاتل أن يقول : قد أصاب الله به ما أراد ! وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا وجه أصلاً ، إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلاً ، لا محتملاً ولا خفياً »^(٤٨) .

ويمكننا أن نقرر منذ الآن ان ابن حزم قد التزم عند التطبيق بهذا العهد الذي قطعه على نفسه . فحينها كان يكتشف الخلط أو الكذب في أحد النصوص المشار إليها هنا ، كان يسك عند مناقشته بناء على احتمال « للتأويل البعيد »^(٤٩) ، أو لأنه « يمكن أن يُخرَج على وجه ما »^(٥٠) ، بل وجدناه في أكثر من موضع يسعى بنفسه إلى علماء اليهود مستفسراً عن معنى كلمة^(٥١) ، أو مستوضحاً حقيقة مسألة^(٥٢) .

(٤٤) السابق ١١٧/١ .

(٤٦) السابق ١٣٣/١ ، ١٣٤ .

(٤٧) السابق ١٨٦/١ .

(٤٨) السابق ١١٧/١ .

(٤٩) السابق ١٤٤/١ .

(٥٠) السابق ٥٥/١ .

(٥١) السابق ١٣٥/١ ، ١٤١ ، ١٥٢ .

(٤٤) السابق ١١٧/١ .

(٤٦) السابق ١٣٣/١ ، ١٣٤ .

(٤٨) السابق ١١٧/١ .

(٥٠) السابق ٥٥/١ .

(٥٢) السابق ١٩٥/١ .

إننا نلح هنا على روح الإنصاف لدى ابن حزم ، لأن لها أهمية خاصة في موضوعية المنهج الذي اعتمد عليه ، ولأنها ، في الوقت نفسه ، تعدّ رداً حاسماً على ما تردّد من أن ابن حزم كان يبدأ في جدال خصومه ، من مسلمات يعتقد تماماً في صحتها^(٥٣) ، أو أنه يصدر عن عداوة متأصلة فيه^(٥٤) . وسوف نرى أثناء التحليل التالي لنقده : هل صحيح أن ابن حزم كان يكره ثم يهاجم ، أم أنه كان يكره ، لأنه يكتشف زيف من يهاجمه !

وسنقوم الآن بتصنيف عناصر النقد التفصيلي الذي وجهه ابن حزم إلى نص التوراة الموجودة في أيدي اليهود على عصره ، في أربعة قوائم ، حتى يسهل تناولها بقدر من التحليل :

القائمة الأولى : فيما يتعلق بالذات الإلهية

القائمة الثانية : فيما يتعلق بالأنبياء

القائمة الثالثة : تناقض النصوص

القائمة الرابعة : أخطاء علمية

القائمة الأولى : فيما يتعلق بالذات الإلهية :

لاحظ ابن حزم أن التوراة تمتلئ بالتعبيرات التي يمسّ منطوقها ومفهومها معاً قداسة الذات الإلهية ، وما ينبغي لها من سمو وتنزيه ، فهي تنسب إلى الله (تعالي) التشبيه والبداء ، وتصفه بأوصاف بشرية ، وتصيف إليه الأبناء ، وتذكر نبوءات له لم تتحقق .

● تشبه التوراة أحياناً الإنسان (المخلوق) بالله (الخالق) . ومن تعبيراتها في ذلك الصدد : « قال الله : أصنع بناء آدم كصورتنا ، كسبها »^(٥٥) وكذلك « قال الله : هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر »^(٥٦) ، وفي أحيان أخرى ، تشبه الله بالمخلوقات : « اعلموا أن السيد إلهكم الذي هو نار أكل . . . »^(٥٧) .

(٥٣) انظر : د . الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم ص ١٤٣ وما بعدها . مكتبة وهبة .

القاهرة ١٩٧٧ .

(٥٤) السابق ١٧٦ .

(٥٥) الفصل ١ / ١١٧ .

(٥٦) السابق ١ / ١٢٠ .

(٥٧) السابق ١ / ٦٠ ، والرد على ابن النغيلة ص ٧٦ .

● أما نسبة البداء إليه ، فيظهر من انذار الله لموسى أنه سيهلك بنى اسرائيل ويقدمه على أمة أخرى عظيمة ، « فلم يزل موسى يرغب إلى الله تعالى في أن يفعل ذلك حتى أجابه ، وأمسك عنهم - وهذا هو البداء بعينه والكذب المنفيان عن الله تعالى » (٥٨) .

● كما يكثر في التوراة وصف الله تعالى بأوصاف بشرية ، لا تليق به ، ومنها أنه تعالى كان « يكلم موسى مواجهة ، فيما يفهم ، كما يكلم المرء صديقه » (٥٩) ، ومنها أيضا : « أن موسى رغب إلى الله تعالى أن يراه ، وأن الله تعالى قال له : سأدخلك في حَجْر ، وأحفظك بيمينى ، حتى أجتاز ، ثم أرفع يدي وتبصر ورائى ، لانك لا تقدر أن ترى وجهي » (٦٠) ، ومنها أيضا : « أن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع ! » ويعلق ابن حزم قائلا : « وهل تكون الراحة إلا لتعب ونصب ، قد خارت قواه ، وضعفت طبيعته » (٦١) .

وما هو أكثر صراحة من ذلك كله ، أن الله تعالى تبدى ليعقوب على هيئة إنسان قوى ظلّ يصارعه حتى الصباح ، دون أن يتصر عليه « (٦٢) ، ويقول ابن حزم : « ولقد ضربت بهذا الفصل وحده المتعرضين منهم (أى من اليهود) للجدال في كل محفل » (٦٣)

● وما يتصل بمسألة التشبيه أن التوراة قد نسبت إلى الله تعالى أولاداً ، ومن ذلك قولها : « فلما رأى أولادُ الله بنات آدم ، أنهنَّ حسان ، اتخذوا منهن نساء ، وقال (أى كاتب التوراة) بعد ذلك : كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم ، ويؤلّد لهم حراما ، وهم الجبابرة على الدهر » (٦٤) . « وقال في السفر الثاني من توراتهم : إن الله تعالى قال لموسى ، عليه السلام : قل لفرعون : السيد يقول : الإسرائيل بكر ولدي ، ويقول لك إئذن لولدي ليخدمني » (٦٥) .

● وأخيرا تأتي النبوءات الإلهية التي لم تتحقق . . ومن أمثلتها قول الله تعالى لزوجة

(٥٨) الفصل ١/١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٤ وكذلك : الرد على ابن النغريلة ص ٧٣ .

(٥٩) الفصل ١/١٦٤ . (٦٠) السابق ١/١٦٥ .

(٦١) الرد على ابن النغريلة ص ٥٤ . (٦٢) الفصل ١/١٤١ ، ١٤٢ .

(٦٣) السابق ، نفس الجزء والصفحة وتوجد إشارة لذلك أيضا في ١/١٤٨ .

(٦٤) السابق ١/١٢١ . (٦٥) السابق ١/١٥٣ .

اسحاق : « في بطنك أمتان وحزبان ، يفترقان منه ، أحدهما أكبر من الآخر ، والكبير يخدم الصغير . . . ولا خلاف بينهم في أن عيسو (الكبير) لم يخدم قط يعقوب (الصغير) ، بل في التوراة - نصاً - أن يعقوب سجد على الأرض سبع مرات لعيسو إذ رآه . . . وأن بني عيسو لم تزل أيديهم على ألقاء بني اسرائيل من أول دولتهم إلى انقطاعها » (٦٦) .

القائمة الثانية : فيما يتعلق بالأنبياء :

تمتلىء التوراة بعدد كبير جداً من النصوص التي تصوّر الأنبياء تصويراً لا يتفق وعصمتهم أو مقامهم الديني الجليل ، بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتنسب إليهم العديد من الكبائر .

● ويتبدى ذلك من مراجعات الرسل لله تعالى في مخاطباته إليهم . ومن ذلك : « أن الله تعالى قال لابراهيم ؛ أنا الله الذي أخرجتك من أتون الكردانيين لأعطيك هذا البلد حورا ، فقال له ابراهيم : يا رب ، بماذا أعرف أني أرث هذا البلد » ويعقب ابن حزم قائلاً : حاشا لله أن يقول ابراهيم (ص) لربه هذا الكلام ! فهو كلام من لم يثق بخبر الله عز وجل حتى طلب على ذلك برهاناً » (٦٧) .

وهنا يسرع ابن حزم ليؤكد أن مثل هذا الاعتراض على الله ، ليس من قبيل طلب ابراهيم رؤية إحياء الموتى المذكور في القرآن (٦٨) ، بل إن الفرق بين الاثنين هو « فرق كما بين المشرق والمغرب » (٦٩) ومع أنه يفسر كلاماً من طلب القرآن ، واعتراض التوراة ، فإنه يورد معارضة أخرى لا يتطرق الشك في ظهور شناعتها :

عندما علمت سارة بأنه سيكون لها ابن ، وهى في حال لا تلد أمثالها من النساء ، ضحكت في نفسها : « قال الله تعالى إن سارة ضحكت : وقالت سارة : لم أضحك . فقال الله : بلى قد ضحكت !

فهذه مراجعة الخصوم ، وتعارض الأكفاء ، وحاشا لسارة ، الفاضلة المنبئة من الله عز وجل بالبشارة ، من أن تكذب الله عز وجل فما يقول ، وتكذب هي في ذلك ، فتجحد

(٦٦) السابق ١/١٣٦ وأيضاً صفحات ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٦٧) السابق ١/١٢٩ .

(٦٨) سورة البقرة ، الآية ٢٦٠ .

(٦٩) الفصل ١/١٢٩ .

ما فعلت ، فجمع بين سؤأتين إحداهما كبيرة من الكبائر ، قد نزه الله عز وجل الصالحين عنها ، فكيف الأنبياء ! والأخرى أدهى وأمر ، وهي التي لا يفعلها مؤمن ولو أنه أفسق أهل الأرض ، لأنها كفر» (٧٠) .

أما المساس بعصمة الأنبياء ، كما ورد في التوراة التي بأيدي اليهود ، فيتمثل في عدد من الأخطاء الدينية والتهم الأخلاقية التي تأتي طبيعة النبوة نفسها أن يقع أمثالها من نبي .

● فمن ذلك ما ورد في التوراة ، أكثر من مرة ، خاصاً بسجود الأنبياء للملائكة ، وتعبدهم لها . وقع ذلك من ابراهيم ، عليه السلام (٧١) ، وكذلك من لوط (٧٢) . يقول ابن حزم : « فإن الأنبياء لا يسجدون لغير الله تعالى ، ولا يتعبّدون لسواه » (٧٣) .

● وما هو أفحش من ذلك يتمثل في ما ذكرته التوراة عن هارون ، الذي جمع من بني اسرائيل ، أثناء فترة غياب موسى ، أقرط الذهب ، « وأفرغها ، وعمل منها عجلاً ، وقال : هذا إلهكم ، يا بني اسرائيل ، الذي أخرجكم من مصر » (٧٤) .

وهنا لا يسع ابن حزم إلا أن يبدي عظيم دهشته ، فيقول : « إن هذا الفصل عفا على ما قبله ، وطم عليه . . نبي مرسل كافر مشرك يعمل لقومه إلهاً من دون الله !! » (٧٥) .

● بل إن شيئاً من عصمة الأنبياء لا يمكن أن يبقى ، حينما تذكر التوراة أن ابنتي لوط مارستا الزنا مع أبيهما بعد أن سقته الخمر ، وحملتا منه ، ووضعتا ولدتين ! » (٧٦) .

● وإذا قيل إن لوطاً كان سكران - وحتى هذا غير مقبول أساساً من الناحية الدينية والعقلية - فإن يهوذا قد سعى بنفسه - تبعاً لما ورد في التوراة - إلى زوج ابنه ، وقد ظنّها زانية ، ليبارس معها هذا الفعل ، الذي نتج منه توأمان كان من نسلهما داود وسليمان عليهما السلام (٧٧) .

يقول ابن حزم : « وتالله ما رأيت أمة تقر بالنبوة ، وتنسب إلى الأنبياء ما يشبه هؤلاء الكفرة !! » (٧٨) .

(٧٠) السابق ١٣٢/١ وكذلك ١٨٠ - ١٨٣ .

(٧١) السابق ١٣٠/١

(٧٢) السابق ١٣١/١

(٧٣) السابق ١٣٢/١

(٧٤) السابق ١٣٣/١ ، ١٣٤ .

(٧٥) السابق ١٦٢/١

(٧٦) السابق ١٤٧/١

(٧٧) السابق ١٤٥/١ ، ١٤٦ .

● ومع ذلك ، فمن المناسب هنا أيضا أن نسوق قصة إسحاق عندما طلب من ابنه عيسو أن يأتيه بصيد ليباركه ، وأن رققة ، أم عيسو ويعقوب أسرت إلى الأخير ، الذي كانت تفضله على أخيه ، أن يسرع للقيام بهذا العمل ، ويخادع إياه ، لينال بركته^(٧٩) .

ويعقب ابن حزم على ذلك قائلا : « وفي هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات »^(٨٠) . ويمكننا نحن أن نلخصها فيما يلي :

- خداع يعقوب (النبي) ، وكذبه على أبيه !
- جواز الحيلة على اسحاق (وهو نبي !)
- سرقة البركة من الأنبياء عن طريق الغش والخداع (وهذا يعكس أخلاق اليهود) .
- كيف تتحقق البركة ليعقوب ، مع أن المقصود بها عيسو !؟

وهنا ينتهز ابن حزم هذه الفرصة ليقول : « وما أشبه هذه القضية إلا بحمق الغالية من الرافضة ، القائلين إن الله تعالى بعث جبريل إلى علي ، فأخطأ جبريل وأق إلى محمد ! »^(٨١)

● أما فيما يتعلق بهم معجزات الأنبياء ، فتأتى عن طريق إمكانية مشاركة السحرة لهم في القدرة على الأعمال الخارقة ، وبذلك تنتفي عن الرسل صفة التفرد بالمعجزات . وقد اخترنا النص التالي من كتاب ابن حزم في الرد على ابن النغريلة اليهودي ، لأنه أخصر بكثير مما ورد عن نفس الموضوع في كتاب : الفصل :

« ومن عجائبهم أنهم يقرّون في كتابهم المسمى بالتوراة أن السحرة فعلوا بالرقمي المصري مثلما فعل موسى بن عمران (ص) من قلب العصا حية ، ومن قلب ماء النيل ، ومن استجلاب الضفادع ، حاشا البعوض ، فلم يقدروا عليه !

قال أبو محمد : لو صح هذا - وأعوذ بالله - لما كان بين موسى ، عليه السلام ، والسحرة فرق ، إلا قوة العلم والتمهر في الصناعة فقط .

ونحن نبرأ إلى الله تعالى من أن يكون آدمي يقدر بصناعته على خرق عادة ، أو قلب عين ، وننكر أن الله تعالى يولى ذلك أحداً غير الأنبياء ، عليهم السلام ، الذين جعل الله

(٧٩) السابق ١/ ١٣٧ .

(٨٠) السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٨١) السابق ١/ ١٣٨ .

تعالى ظهور المعجزات عليهم شاهدا لصدقهم» (٨٢) .

وأخيراً نصل إلى تسجيل التوراة لكثير من نبوءات الأنبياء التي لم تتحقق ومن الواضح أن هذه إحدى البصمات التي تشوّه مقام النبوة ، بل إنها تهدم بنيانه الذي يقوم أساساً على الصدق .

● تذكر التوراة أن نوحاً حين بلغه فعل ابنه حام ، أبي كنعان ، قال « ملعون أبو كنعان ! عبد العبيد ، يكون لإخوته مستعبداً ، يكون لإخوته » ويلاحظ ابن حزم أن حفيد حام هذا ، الذي تنبأ له نوح بالاستعباد ، كان هو النمرود ، الذي ملك جميع الأرض ، ونوح لما يزل على قيد الحياة !

ويعقب ابن حزم قائلاً : « فحصل من هذا الخبر تكذيب نوح في خبره ، وهو بإقرارهم نبي معظم جداً » (٨٣) .

● كذلك تذكر التوراة « أن يعقوب ، عليه السلام ، قال للوي وشمعون سأبديهما في يعقوب ، وأفرقهما في إسرائيل ! » ويقول ابن حزم : « أما لاوي فكان نسله مبدأً في بني إسرائيل كما ذكر ، وأما بنو شمعون فلا . بل كانوا مجتمعين في البلدة الذي وقع لهم ، كسائر الأسباط ولا فرق » وينتهي ابن حزم إلى أن إنذار النبوة ليس « مما يكذب في قصة ويصدق في أخرى . هذه صفات انذارات الحساب القاعدين على الطرق للنساء ، ولمن لا عقله له » (٨٤) .

القائمة الثالثة : تناقض النصوص :

إذا كان ابن حزم قد صدر في نقده الذي صنفناه في القائمتين السابقتين من منطلق ديني ، أي أنه كان يعرض توراة اليهود على مقياس ديني ، فإنه في هذه القائمة قد أصبح يعتمد على أساس عقلي واضح . . فهو يقرأ النصوص بإمعان ، ويقارن بينها في صبر ، ثم يستخرج النتيجة التي تثبت اضطراب النص الذي يقوم بفحصه .

وقد اكتشف ابن حزم كثيراً من وجوه التناقض في توراة اليهود . ومن أبرز وجوه هذا

(٨٢) الرد على ابن النغزيلة ص ٨٢ ، والموضوع يستغرق في كتاب الفصل من ١٥٤ - ١٥٨ .

(٨٤) السابق ١ / ١٥٣ .

(٨٣) الفصل ١ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

التناقض : تناقض النص مع نفسه ، وتناقض النص مع نص آخر في نفس النسخة من التوراة ، وتناقضه مع نص آخر في نسخة أخرى من نسخ التوراة ، وأخيراً تناقض نص توراة اليهود مع نص قرآني ثابت .

● فمن وجوه تناقض النص مع نفسه ، بمعنى أن آخره يتقضى أوله ، ما ورد بشأن فرعون ، الذي ذكرت التوراة إهلاك جميع دوابه في وباء عام ، شمله وأهل مصر جميعاً ، ثم بعد قليل تذكر التوراة : أن الله تعالى أنذر فرعون بأنه سوف يهلك أنعامه بالبرد !

ويعقب ابن حزم على ذلك بقوله : « فليت شعري ! أى دابة بقيت لفرعون وأهل مصر ، وقد ذكر أن الوباء أهلك جميعها »^(٨٥) .

● وفي موضع آخر تذكر التوراة أن الله تعالى قرر أعمار البشر بمائة وعشرين سنة ، وبعد هذا القول : تورّد أسماء كثير من الأنبياء والأشخاص الذين عاش احدهم ٦٠٠ سنة ، ٤٦٥ سنة ، ٤٣٣ سنة ، ٤٦٤ سنة^(٨٦) .

كذلك تذكر التوراة عن يعقوب أنه قال لراويين : أنت أول المواهب ، مفضل في الشرف ، مفضل في العز ، ولا تفضل منهمة ماء !
ويقول ابن حزم : هذا كلام يكذب أوله آخره^(٨٧) .

● أما بالنسبة إلى النصوص التي تتعارض مع بعضها البعض ، فهي كثيرة جداً في توراة اليهود ، ومن أمثلتها :

ذكر كاتب التوراة أن هايل بن آدم كان راعي غنم . وقبل ذلك بنحو ورتين ، يقول : إن لامك ، الحفيد الخامس لقايل ، هو أول من سكن الأخبية وملك الماشية . ويقول ابن حزم : وهاتان قضيتان تكذب إحداهما الأخرى ، ولا بد^(٨٨) .

كذلك تصف التوراة المنّ النازل على بني اسرائيل من السماء بأنه كان أبيض ، شبيهاً

(٨٥) السابق ١/١٥٧ ، ١٥٨

(٨٦) السابق ١/١٢٢ .

(٨٧) السابق ١/١٥٢

(٨٨) السابق ١/١٢١ .

بزريرة الكزبر ، ومذاقة كالسמיד المعل . وفي السفر الرابع : كان المن شبيها بزريرة الكزبر ، ولونه إلى الصفرة ، وكان طعمه كطعم الخبز المعجون بالزيت ، ويقول ابن حزم : وهذا تناقض في الصفة واللون والطعم ، وإحدى الصفتين تكذب الأخرى بلا شك (٨٩) .

وأيضاً ما ذكرته التوراة من « أن رؤية الله قد وقعت لبعض بني اسرائيل . وفي السفر الخامس : كلمكم الله من وسط اللهب ، فسمعتم صوته ، ولم تروا له شخصاً » .

يقول ابن حزم : « وهاتان قضيتان تكذب كل واحدة منهما الأخرى ، ولا بد » (٩٠) .

● ويسجل ابن حزم وجهاً آخر من التناقض ، وذلك عن طريق المقارنة بين نسختين مختلفتين للتوراة .

فقد ورد في النسخة التي اعتمدها في دراسته أن الله تعالى أسكن في شرقي جنة عدن الكروبيم ، ولهب سيف متقلب بحراسة شجرة الحياة .

وفي نسخة أخرى : ووكل الله تعالى بالجنان المشتهر اسرافيل ، ونصب بين يديه رحماً نارياً ، ليحفظ طريق شجرة الحياة .

وهنا يعقب ابن حزم قائلاً : إن لم يكن أحدهما خطأ من المترجم ، وإلا فلا أدري كيف هذا ؟ (٩١) .

● وأخيراً يعتمد ابن حزم في إظهار تناقض التوراة على ما ورد في القرآن الكريم - وهو المنقول عن طريق التواتر - خاصة بشأن قصة ، يظهر تلفيقها واضطرابها في التوراة ، ويتضح اتساقها ومعقوليتها في القرآن الكريم .

فمن ذلك : أن الله تعالى قد تجلى لابراهيم ، عند بلوطات ممرأ ، وهو جالس عند باب الخباء ، عند حمى النهار ، ورفع عينيه ، ونظر ، فإذا بثلاثة نفر وقوف أمامه ، فنظر ، وركض لاستقبالهم عند باب الخباء ، وسجد على الأرض ، وقال يا سيدي ... الخ . ويتبع ابن حزم هذه القصة في التوراة ليستخرج منها سبع نقاط ضعيفة ، كلها تكشف

(٨٩) السابق ١/١٦٠ . (٩٠) السابق ١/١٦١ . (٩١) السابق ١/١٢١

عن التناقض ، إما في داخل القصة ذاتها ، وإما مع المبادئ الثابتة لدى اليهود . . ثم ينتهي من ذلك قائلاً : أين هذا الكذب ، البارد ، الفاضح ، الذي يشبه عقول اليهود المصدقين به ، من الحق المنير ، الواضح عليه ضياء اليقين ، من قول الله ، عزل وجل ، في هذه القصة نفسها (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام - الآية)^(٩٢) .

القائمة الرابعة : أخطاء علمية :

تشتمل هذه القائمة على مجموعة من الأخطاء العلمية التي رصدها ابن حزم في توراة اليهود ، وتتعلق هذه الأخطاء بالحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وما نسميه الآن بالجغرافيا الاقتصادية ، وأخيراً طبائع العمران ، وبدائه العقل . ومع أننا قد وضعناها جميعاً تحت عنوان واحد ، قد يتسم بالعمومية ، إلا أننا قمنا بتصنيف نقدي لعناصر كل جانب منها .

وما هو جدير بالملاحظة أن ابن حزم قد قدم بهذا العمل نموذجاً جيداً لدارس الوثائق القديمة ، الذي ينبغي أن يمتشد لموضوعه ، معتمداً على كل « العلوم المساعدة » في مجال بحثه . ومن الواضح أنها - هنا - تتمثل في إجادة الحساب ، والإلمام الدقيق بالتاريخ والجغرافيا ، وذلك بالإضافة إلى حسن استخدام قاعدة « الوضوح العقلي » أو « بداية العقل » ، كما يطيب لابن حزم أن يسميها . وأخيراً التطبيق المبتكر لمبدأ « طبائع العمران » على حوادث الماضي ، وهو المبدأ الذي أجاد ابن خلدون - فيما بعد - عرض فلسفته في مقدمته الشهيرة .

أ - أخطاء في الحساب :

سجل ابن حزم كثيراً من الأخطاء التي تضمنتها التوراة في الحساب ، وهو القائل إن « الحساب علم ضروري ، لا يتناقض »^(٩٣) . لذلك فقد رأى أن هذه الأخطاء تعتبر من الأدلة القوية على أن تلك التوراة الموجودة بأيدي اليهود ليست هي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام . « لأنه تعالى عن أن يخطيء في الحساب ، أو أن يخطيء فيه موسى عليه السلام ، فصح أنها من توليد جاهل غث ، أو من عابث سخر بهم ، وكشف

(٩٢) سورة هود ، الآية ٦٩ . والنص في كتاب الفصل ١ / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٩٣) الفصل ١ / ١٥٠ .

سوءاتهم ! ﴿٩٤﴾ والقاعدة هنا أن الله تعالى « لا يمكن أن يكذب في دقيقة ، ولا أن يكذب رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، عامداً ولا مخطئاً في دقيقة ، فيقره الله تعالى على ذلك » ﴿٩٥﴾ .

فكيف إذن يوجد هذا الخطأ في ما يقرب من عام ، وذلك عندما تتعرض التوراة مثلاً لعمر جد نوح ، عليه السلام :

فهي تذكر أن عمر متوشالغ = ٩٦٩ سنة .
وأنه أنجب ابنه لامك ، وعمره = ١٨٧ سنة
وعندما بلغ لامك = ١٨٢ سنة ، ولد له نوح .
أي أن عمر متوشالغ عندما ولد حفيده نوح كان = ٣٦٩ سنة .
وبالتالي فإن عمر نوح كان = ٦٠٠ سنة ، عند موت جده متوشالغ .
لكن الحديث عن الطوفان يبين أن متوشالغ لم يستوف الـ ٦٠٠ سنة ! ﴿٩٦﴾ .

كما أن هناك خطأ آخر يبلغ عامين في عمر سام بن نوح : « قال في توراتهم إن نوحاً لما بلغ ٥٠٠ سنة ولد له يافث وسام وحام ، ثم ذكر أن نوحاً إذ بلغ ٦٠٠ سنة كان الطوفان ، ولسام يومئذ ١٠٠ سنة وقال بعد ذلك : إن سام بن نوح لما كان ابن مائة سنة ولد له ارتكشاد ، لستين بعد الطوفان ، فهذا خطأ في عامين ! ﴿٩٧﴾ .

وعندما تعدد التوراة أبناء يعقوب المولودين بالشام ، الذين دخلوا معه مصر ، تذكر أنهم كانوا - من زوجة ليثة - ستة ذكور ، وابنة واحدة ، وأن أولاد الذكور الستة كانوا = ٤ + ٦ + ٣ + ٥ + ٤ + ٣ = ٢٥ فإذا أضفنا إلى هؤلاء : الآباء الستة ، والإبنة : صار المجموع = ٣٢ . ومع ذلك ، فالتوراة تعقب على ذلك قائلة : « هؤلاء بنو ليثة ، وعدد أولادها وبناتها ثلاثة وثلاثون ! » ﴿٩٨﴾ .

لقد كانت هذه الأخطاء وأمثالها مبرراً لابن حزم لكي يعلن أن التوراة التي تشتمل على هذا الخطأ والخلط لا يمكن أن يوثق بنصّها : « فوضح يقيناً لكل من له أدنى فهم ، يقيناً كما أن

(٩٤) السابق ، نفس المصدر . (٩٥) السابق ١/١٥٩ .

(٩٦) السابق ١/١١٢ ، ١٢٣ . (٩٧) السابق ١/١٢٤ .

(٩٨) السابق ١/١٥٠ .

أمس قبل اليوم ، أنها ليست من عند الله ، ولا من إخبار نبي ، ولا من تأليف عالم يتقى الكذب ، ولا من عمل مَنْ يحسن الحساب ، ولا يخطيء فيما لا يخطيء فيه صبي يحسن الجمع والطرح والقسمة والقسمية» (٩٩) .

وهكذا أتاحت له هذه الأخطاء الفرصة للتعرف على مدى علم واضع ذلك النص المحرف للتوراة ، وهو الأمر الذي جعله يعلن سخريته منه حين يقول « إن الذي عمل لهم التوراة التي بأيديهم كان قليل العلم بالحساب ، ثقيل اليد فيه جداً » (١٠٠) .

ب - أخطاء في التاريخ :

● تذكر التوراة أن الله تعالى قال : « كل من قتل قابيل نفاديه إلى سبعة » ولا تناكرين جميع فرق اليهود في أن لامك هو الذي قتل قايين جد جد أبيه ، وأنه لم يُقْلُ به ، فنسبوا إلى الله تعالى الكذب لأنه وعده أن يفديه إلى السبعة ولم يفده .

وأيضاً فإن ذكر السبعة هنا حق ، لأن لامك الذي قتله هو الخامس من ولد قايين ، وقايين هو الخامس من آباء لامك ، فلا مدخل للسبعة هنا » (١٠١) .

● وقال الله تعالى لابراهيم : أنت تسير لأبائك بسلام ، وتدفن بشيئة صالحة ، والجيل الرابع من البنين يرجعون إلى هنا (أى إلى الشام) ويردّان حزم بأن الجيل الأول من بني ابراهيم هم اسحاق وإخوته ، والجيل الثاني هم يعقوب وعيصا وبنو أعماهما ، والجيل الثالث أولاد يعقوب لصلب (يوسف وإخوته) ، والجيل الرابع هم أولاد هؤلاء ومن المعروف - تاريخياً - أن الجيل الثالث والرابع هم الداخلون من مصر ، لا الخارجون منها بنص توراتهم وإجماعهم كلهم بلا خلاف من أحد منهم .

وإنما رجع إلى الشام بنص توراتهم وإجماعهم كلهم : الجيل السادس من أولاد ابراهيم . . وما رجع من الجيل الرابع ، ولا من الجيل الخامس ولا واحد إلى الشام ، وحاشا لله من أن يكذب في خبره ! » (١٠٢)

(٩٩) السابق ١/٢٢٨

(١٠٠) السابق ١/١٨٤ .

(١٠١) السابق ١/١٢٤ ، ١٢٥ .

(١٠٢) السابق ١/١٢١

ج - أخطاء في الجغرافيا :

● ومن أمثلة ذلك ما ورد في التوراة خاصاً بالأشهر الأربعة الخارجة من الجنة ، وهنا يبيّن ابن حزم فساد هذا النص على أساس علم الهيئة ، ويستشهد بمعلومات صحيحة عن منابع النيل ، ويجري الفرات كما يعتمد على ما يسمى الآن بالجغرافيا الاقتصادية لكي ينقض ما ورد في التوراة حول وجود اللؤلؤ في بلاد زويلة ، ويقرر أن « بلاد زويلة ليس بها لؤلؤ أصلاً ، وإنما هي في .. بحر فارس ، وبحر الهند » (١٠٣) .

● وفي مجال عدم تحقق النبوءة التي وردت بأن « الله قال لابراهيم لنسلك أعطى هذا البلد من نهر مصر ، النهر الكبير ، إلى نهر الفرات » يبيّن ابن حزم أن النهر الكبير ، المقصود به نهر الأردن ، وهو من الناحية الجغرافية ليس بكبير ، فهو لا يزيد عن ستين ميلاً فقط ! (١٠٤)

د - طبائع العمران :

يقرر ابن حزم أن « الطبيعة لا تستحيل أبداً ، ولا يمكن تبديلها عند كل ذي عقل » (١٠٥) ، وهذا معناه الاعتراف بالأساس الضروري الذي تقوم عليه فكرة القانون العلمي . ومن بين مزايا هذا القانون أنه يتيح للإنسان أن يقيس الماضي على الحاضر . وإذا كان هذا أمراً واضحاً في الظواهر الطبيعية ، فإن تطبيقه على حوادث التاريخ يعتبر أحد المنجزات الهامة لدى علماء المسلمين من أمثال ابن حزم ، وبصورة أكثر تكاملاً عند ابن خلدون .

ومن الأمثلة في هذا المجال ما ورد في توراة اليهود من تحويل ماء النيل (كله) إلى دم ، على يد موسى وهارون ، وأن السحرة فعلوا مثل ذلك . وهنا يتساءل ابن حزم : أي ماء يبقى بعد أن تحوّل ماء النيل كله إلى دم حتى يفعل منه السحرة ذلك ؟ فإن ردّوا بأن المصريين حفروا الآبار بجوار النيل ، عاد عليهم بقوله : ومن أين شرب أهل مصر في الفترة ما بين حفر الآبار وتحويل النيل إلى دم ؟ (١٠٦) .

(١٠٤) السابق ١ (١٢٩)

(١٠٣) السابق ١ / ١١٨ ، ١١٩

(١٠٦) السابق ١ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

(١٠٥) السابق ٥ / ١٦

ومن ذلك أيضا مبالغة التوراة الشديدة في ذكر عدد بني اسرائيل الخارجين من مصر . وقد قام ابن حزم بتتبع دقيق لتعداد الرجال القادرين على القتال فقط عن هم فوق العشرين ، وما يتبع ذلك من الأطفال والمسنين والنساء ، مما يدل بوضوح على عدم احتمال الخبر للصحة .

بل إن ابن حزم يقوم بحصر المساحة التي قُسمت عليهم ، ومنها يتبين أيضا عدم معقولية الخبر^(١٠٧) .

كذلك من الأمور التي تذكرها التوراة عدد المدن التي جرى توزيعها على أبناء يعقوب ، وتقدر « بأربعمائة مدينة غير التي لا يحصيها إلا الله » . ويرد ابن حزم بأن المكان المشار إليه مازال موجوداً حتى الآن ، وهو لا يزيد عن ١٢ × ١٢ ميلاً^(١٠٨) .

النتيجة :

وهكذا من خلال فحص توراة اليهود فحسباً داخلياً وخارجياً تبعاً لأصول منهج النقد التاريخي يتأكد أنها قد تعرضت لضروب كثيرة من التحريف ، وأنها لا تمثل النص الإلهي الذي أنزله الله تعالى ، على موسى ، عليه السلام ، بل إن هذا النص الموجود بأيدي اليهود ليس سوى عمل بشري محض ، امتلأ بالكثير من الأخطاء ، التي يكفي واحد منها فقط لتزع الثقة من مجموعه .

هذا هو الشق الأول من النتيجة . أما الشق الثاني فهو الخاص بصحة النص القرآني ووثاقته .. والدليل على ذلك أنه لم يتعرض لشيء مما تعرضت له توراة اليهود . وكانت محافظة المسلمين عليه - عن طريق الرواية والتدوين المتواترين تحقيقاً لقول الله تعالى ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾^(١٠٩) وكذلك ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(١١٠) . وصدق الله العظيم .

ملاحظات أخيرة :

١ - يعتمد منهج النقد التاريخي عند ابن حزم على عناصر كثيرة مستمدة أساساً من منهج علماء

(١٠٨) السابق ١ / ١٦٨ .
(١١٠) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(١٠٧) السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٨ .
(١٠٩) سورة القيامة ، الآية ١٧ .

الحديث المسلمين ، وخاصة فيما يتعلق بأصول الرواية ، وضرورة اتصالها ، والتثبت من أحوال الناقلين للأخبار .. الخ (نقد السند) .

٢ - يمثل منهج ابن حزم في « نقد النصوص » خطوة هامة في مجال تحليل المضمون ، مع عدم إغفال علاقته بالكاتب ، وبظروف العصر الذي كتب فيه .

٣ - بالإضافة إلى تحقيق « الجمع بين نقد السند ونقد المتن » ، استعان ابن حزم بمجموعة متنوعة من المعارف - أو ما يُطلق عليه في مناهج البحث الحديثة : العلوم المساعدة - وهي العلوم التي تساعد الباحث على بلورة الموضوع الذي يتناوله ، من أجل الوصول إلى نتيجة مقبولة .

٤ - يُعتبر قياس الماضي على الحاضر في مجال التاريخ بصفة خاصة انجازاً هاماً لدى ابن حزم ، وهناك احتمال كبير جداً في أن ابن خلدون قد أفاد من هذه الفكرة في مقدمته الشهيرة .

٥ - نتيجة لتطبيق منهج نقد النصوص القديمة تطبيقاً علمياً صحيحاً لدى ابن حزم ، فقد ظلت النتائج التي توصل إليها ، في مجال نقد توراة اليهود ، صحيحة حتى اليوم .